لم تكن وحدها

لا يهم مع من كانت، أو من تسبب بالحادث!

كل همه أن تشفى، وأن تكون بخير. أحضر لها أمهر الأطباء في المدينة. لم يكـن غنيـاً أو ذا سـلطة أو جاه. لقد بـاع قطعـة الأرض الوحيدة التي ورثها عن والده ليوفر ثمن علاجها.

كثيراً ما كانت تحرضه على بيعها. كان يرفض، ويسـتمع لصراخها في أذنيه، يتأمل شـفتيها الصغيرتين تتحركان بغضـب وانفعال، فيراها أكثر جمالاً.

لم يصرخ في وجهها قط. هي أيضاً كانت كلما غضبت تعود فتعتذر له؛

ولكنها تجد أن قطعة الأرض حلها الوحيد لكي "تثب على وش الدنيا".

كان صبـوراً حليماً، أدرى منها بالحياة وبغدر الزمن؛ أو أن هذه كانت مزاعمه. في الحقيقة، لم يبقَ شيئاً يذكره بعائلته سوى هذه الأرض.

كان أبـوه فلاحـاً بسـيطاً. أمه ماتت عنـد ولادته، فربّتـه عمته، التي رفضـت أن تتزوج، لكي ترعـى أخاها الكبير وابنـه، على الرغـم من محاولات والده تزويجها.

هذه الأرض هي صلته الوحيدة بماضيه، وإذا فقدها سيفقد الماضي.

أسـبوع كامـل لم يفارقها لحظة واحـدة، وهي في غيبوبـة، وتُجرى لها عملية جراحية تلو أخرى. كان الحادث كبيراً، فقد أُصيبت بضربة شديدة في الدماغ.

حينما كان في البيت يسـتعد للاحتفال بعيـد ميلادها، كانت تحتـفل بالمناسبة نفسها مع رجل آخر تعرفت إليه عن طريق الشبكة الإلكترونية، نظراً لانشـغالات زوجها المهنية، وتسلية لأوقات فراغها. رفضت مراراً وتكراراً الخروج مع الرجل الغريب؛ لكنها وافقت في النهاية.

ترددت كثيراً، وكانت خائفة. لكنه فتنها بثقته بنفسـه وأسلوبه الناعم الرقيق...

كثيراً توقف بسيارته الفاخرة، تحت شباك بيتها، أياماً ولياليَ. أعاد لها صباها، وجدد روحها.

قبل عيد ميلادها بأسبوع، أصرّ عليها أن تشاركه احتفالها؛ ولكنها كانت ترفض بشدة، فهي تعلم أن زوجها لن ينسى هذا اليوم أبداً، وأنه سيجهز لها مفاجأة في المساء. فطلب منها أن يحتفل معها في الصباح، وأن يتركها في المساء لزوجها.

تقبّلت الأمر واستسلمت له.

كانت "العزومة" في أفخم مطعم في المدينة. استقبلها النادل وذهب بها إلى جناح العائلات في غرفة خاصة. قام من مقعده وطبع قبلة على يدها:

- كل عام وأنتِ بخير!

استطاع أن يُهدّئ من قلقها وتوترها. كان هو سيد الموقف والمسيطر عليه؛ بأسلوبه الرقيق وحديثه الشيّق المبهر، ناهيك عن كاريزمته الساحرة.

شربا قهوة الصباح، وتناولا الإفطار، ثم "تورتة" عيد الميلاد، والتي وضع فيها شمعة واحدة. سألته:

- لماذا شمعة واحدة؟!

– لأنه العيد الأول الذي أحتفل به معك.

في الظهيرة، اتصلت بزوجها تخبره بأنها ستذهب للتسوق.

فرح زوجها بهذا الخبر؛ إذ أُتيح له أن يذهب إلى البيت ليستعد للاحتفال.

تأخرت كثيراً.

حاول الاتصال بها عبر هاتفها؛ لكنه مغلق. اتصل ببعض زميلاتها؛ ولكنهن لا يعرفن شيئاً عنها. عرف أيضاً أنها لم تذهب إلى العمل.

في العاشرة مساءً، تلقى اتصالاً من المشفى يخبره بأنها تعرضت لحادث مرير، وأن حالتها الصحية غير جيدة.

كتم على جرحه، ووقف بجانبها، إلى أن استردت عافيتها.

ذهب إلى مكتب الأمانات الخاص بالمشفى، ووضع لها ما تبقى من مبلغ الماضي... تنازل لها عن الحاضر، ومضى إلى المستقبل بقلب جريح.

2012 /4 /22